

الفصل الثاني والعشرون - ٢

نصوص من ابو الفرج ابن العبري من كتاب "الحمامة"

latinseminary.org

الفصل الثالث الزهد

أَيَّانَ تَرَسَّخَ التَّوْبَةُ الحَقِيقِيَّةَ فِي نَفْسِ الْإِنْسَانِ ، وَيَرَى مَقْتِنَاتِ الدُّنْيَا فَائِضَةً عَنِ الْحَاجَةِ وَالضَّرُورَةِ أَمَّا تَطَلُّبُ لِأَغْرَاضِ الْخَطِيئَةِ ، يَحْتَقِرُهَا وَيَزْهَدُ عَنْهَا .
وَلِلزَّهَادِ دَرَجَاتٌ ثَلَاثٌ : سَفْلَى ، وَوَسْطَى ، وَعَلِيَا . فَالسَّفْلَى : هِيَ دَرَجَةُ الَّذِينَ يَزْهَدُونَ عَنِ اللَّذَّةِ خَوْفًا مِنَ الْعَذَابِ الْعَتِيدِ (١) وَأَمَّا الْوَسْطَى فَهِيَ دَرَجَةُ الَّذِينَ يَرْفُضُونَ اللَّذَّةَ الزَّمْنِيَّةَ طَمَعًا فِي نَيْمِ الْفَرْدَوْسِ . أَمَّا الْعَلِيَا فَهِيَ دَرَجَةُ الَّذِينَ مَطْلَبُهُمْ هُوَ الرَّبُّ الصَّالِحُ وَحْدَهُ وَلِذَلِكَ يَشِيحُونَ بِوُجُوهِهِمْ عَمَّا سِوَاهُ . وَيَكِيلُ الْعُلَمَاءُ الْمَدْحَ لِهَذِهِ الْغَايَةِ .

وَيَكُونُ الزَّهْدُ فِي الْمَالِ ، وَالْقَوْتِ ، وَالْكِسْوَةِ ، وَالْمَسْكَنِ ، وَالْإِثَاثِ .
فَالزَّهْدُ فِي الْمَالِ هُوَ أَنْ لَا يَقْتَنِيَ الزَّاهِدُ شَيْئًا مِنْهُ .

وَأَمَّا الزَّهْدُ فِي الْقَوْتِ فَهُوَ أَنْ يَدَّخِرَ لَهُ كِفَايَةَ سَنَةٍ وَاحِدَةٍ أَوْ شَهْرٍ وَاحِدٍ ، أَوْ يَوْمٍ وَاحِدٍ ، مِنْ خَبْزِ الْخِنْطَةِ أَوْ الشَّعِيرِ أَوْ الذَّرَّةِ . (لَمَّا يَحَاوِلُ تَنَاوُلَ طَعَامِهِ) يَغْمَسُ (الْخَبْزَ) بِالسَّمْنِ أَوْ الزَّيْتِ أَوْ بِمَاءٍ مَلْحٍ . (وَهَذِهِ الْآخِرَةُ هِيَ إِدَامَةُ وَحَسْبُ) .

(١) قَالَ ابْنُ عَطَا اللَّهِ (١ : ٦٧) « مَنْ عَبَّدَهُ لَشَيْءٍ يَرْجُوهُ مِنْهُ أَوْ لِيُدْفَعَ بِطَاعَتِهِ وَرُودِ الْعَقُوبَةِ عَنْهُ فَمَا قَامَ بِحَقِّ أَوْصَافِهِ » .

واما الزهد في الكسوة فهو ان يكتسي ثوب دون (١) من الصوف او الشعر يستر به جسمه حتى الركبة . ويتمنطق بسير (٢) ، أو ان شاء لبس رداءً ، واعتمر بقبعة واتعمل حذاء .

واما الزهد في المسكن فهو أن يأوي الى صومعة صغيرة أو كهف أو كوخ ، أو لا يكون له مكان معين ، اقتداءً بربنا (يسوع) . بل يجلس ويرقد حيثما اتفق له .

اما الزهد في الاثاث فهو ان يستعمل الأواني المصنوعة من الخزف أو الخشب أو القرع .

الفصل الرابع التواضع

لما كان زهد الكثيرين عن غير اختيار ، لذلك فالتواضع هو علامة الزهد الحقيقي ، ودلالة التواضع هي الطاعة ، وللتواضع دلائل اخرى ايضا كعدم تحرج (المرء) اذا جلس في مجتمع ما بمقام أحط من مقام من هو اصغر منه (٣) ، وكذا في اوان الصلاة . وان يتصرف ببشاشة مع المساكين ، والفقراء ، واذا ما دعوه يلبي دعوتهم (٤) .

(١) الحقيير : الخسيس الثمن .

(٢) قطعة من جلد مستطيلة تتخذ حزاماً ، وجمع سير سيور وسيورة وأسيار .

(٣) قال الغزالي في كتابه احياء علوم الدين ج ٣ ص ٣٠٩ : « ويجلس في الصدور تحتهم » .

(٤) فيه ايضاً « ان يجيب دعوة الفقير ويمر الى السوق في حاجة الرفقاء والاقارب » .

وان لا يأتي من الاتساح بالأطمار . ويقول مار اسحق : « ان التواضع حتى بدون تعب يغفر خطايا كثيرة » (١) . ويقول ابوانيس رئيس الدير (٢) اذ كانت الكبرياء وحدها دون سائر الاثام قد هوت بالشيطان من العلا ، فالتواضع بدون بقية الفضائل يُصعد الى السماء .

وعندما يصاب الانسان بمرض الكبرياء ، يشفى بمعرفة ذاته ، اعني انه قد خلق أولاً من نطفة تنه وسيكون بعد وفاته طعاماً قذراً للدود . وقد قال أحد العلماء : كيف يتكبر من خرج مرتين من مجرى البول (٣) .

الفصل الخامس الصبر

كما ان الطاعة تلازم التواضع ، يقتضي ايضاً ان يتبع الطاعة احتمال الشدة . وتكون الشدة اما زمنية ، واما ابدية ، وكذلك تكون الراحة ايضاً . واذ ان الشدة الزمنية هي وسيلة للراحة الأبدية ، والراحة الزمنية هي وسيلة للشدة الابدية ، لذلك فالعلماء الحائزون على حكمة المسيح ، يحتملون الشدة الزمنية من أجل الراحة الأبدية .

(١) « قال يوسف بن اسباط : يجزي قليل الورع من كثير العمل ويجزي قليل التواضع من كثير الاجتهاد » . (الغزالي في احياء علوم الدين ج ٣ ص ٢٨٦) .

(٢) يقصد دير سينا ،

(٣) جاء في كتاب احياء علوم الدين للغزالي مج ٣ ص ٢٨٨ مايلي : « فقال سلمان لكني خلقت من نطفة قدرة ثم اعود جيفة منتنة . أفترى ان الدودة التي خلقت من بول انسان اشرف من الدودة التي من بول فرس » .

وهذه هي الشدائد التي يجب الصبر على احتمالها : الجهاد ضد الشراة والشهوة الجنسية (١) ، واتعاب النسك الارادية ، والتجارب غير الارادية ، التي تحصل بسماع من الله لأمتحان المتوحد ، كالأحداث الصعبة والمستعصية ، وملاقاء الناس الاشرار والكافرين . والسقوط من الكهوف ، واحتقار المدبرين وأستهزائهم وسائر الاخوة ، بالمبتدئين الخادمين في الاقنوين (٢) دون ان يذنبوا . وإيقاعهم بامراض مستعصية كالكسل والاهتمام بالجسد ، واضطراب الضمير ، واليأس ، وظلمة الافكار ، ومنع المساعدة البشرية ، وهذه كلها تشفى بكلام ربنا « الذي يصبر الى المنتهى فهذا يخلص » (٣) وتعالج بكلمات الآباء القديسين عن فضيلة الصبر والخلاصة ان من لا يضطرم (قلبه) بمحبة الله . يشابه اللبنة (الرطبة) اذا وضعت في أساس على ضفة نهر (جار) لا تصمد ولو ساعة واحدة ، ولكن اذا سحرت بالنار صارت صلدة كالصخرة .

الفصل السادس حبة الاخوة

حبة الاخوة هي علامة الصبر الحقيقي . لذلك يجب ألا تشوبها العثرات بل تكون عن طيب خاطر وحسن الرضا .

(١) جاء في كتاب احياء علوم الدين للغزالي ج ٣ ص ٧٠ « باعث الفرج والبطن »

أي
فكما حنما مسهبا
(٢) دار المبتدئين .

(٣) انجيل مرقس (١٣ : ١٣)

والمحجوب الحقيقي هو الذي يُحَبِّ لذاته ، اذ ان محبته يلتذ بعشرته .
وليس مصدر هذه اللذة جمالاً ظاهراً أو باطناً انما هو انسجام خفي (وتجاوب
باطني) ما بين الشخصين . (فليس غريباً اذا ما علمت) ان اناساً يحبون ذوي
المنابر القبيحة والاخلاق السيئة .

والانسان (عادة) يحب من يساعده في غرض جسدي ، أو يرشده الى
فائدة روحية ، كمعلم (العلوم) النظرية والعمل الصالح . ويحب من كان
فطناً لا جاهلاً ، وعظيماً لا شرماً ولا طماعاً ، وطيب المعشر لا شرماً .
ومن المحبين من يعتبر صديقه كقريبه فيعطيه بما يفضل عنه ، ومنهم من
يعد صديقه كنفسه ، ومنهم من يرغب في فائدة صديقه اكثر من نفسه . ومنهم
من يعرض نفسه للتجربة عوضاً عن صديقه .

وعلى الصديق ان يساعد صديقه ويسد له حاجته قبل ان يطلب هذا منه
بلجاجة أو بغير لجاجة . وان يقاوم اعداءه ، ويصفح عن زلاته ، ولا يفضح
عيوبه ، ولا يخفي طيب شمائله ، ولا يثقل عليه ، وان لا يصغي الى قصص
جاره ، ولا يراقبه من خصاصة (١) الباب ونحوه متجسماً عليه . ومن لم
يعتن ببيئته المؤمنين ، كان شراً من غير المؤمنين كما قال الطوباوي مار
بولس (٢) .

الفصل السابع عثرات اللسان

لا بد ان تتكلم بعد هذا كله عن العثرات المندسة في هذه الطريق الضيقة

(١) الخصاصة بضم الخاء الشق في الباب او الحائط أو البرقع ونحوها .

(٢) رسالة الرسول بولس الاولى الى تلميذه تيمثارس (٥ : ٨)

لأن من لا يعرف ضررها فلا يتمكن ان يحذر منها وهي كالاتي :

الكلام الباطل :

وهو الكلام الذي لا يبرر الانسان ان نطق به ، ولا يخطيء ان لم ينطق به ، ومصدره البطالة غالباً . ويعالج بالخلود الى السكينة ، وتدريب اللسان على الصمت . وبعضهم يضعون حصى في افواههم ليمنعوا بها انفسهم من الكلام (١)

المهذر :

وهو الاسراف في الكلام . وسببه قابلية الانسان على طلاقة اللسان ، والتوغل في سرد قصص القدماء (مثلا بدون مناسبة أو داع) ويعالج كالسابق .

الكلام الذي يسبب الخطيئة ضمناً :

هو سرد اخبار مجرد الاشرار وانتصاراتهم وغناهم ، والاخبار التي اذا ما سمعها البسطاء ساءت نيتهم ونقص ايمانهم . ويعالج هذا بما جاء بالمزمور (٢) « اما الاشرار فيبادون جميعاً » في هذا العالم أو في العالم الآتي :

الخصام :

وهو العناد وعدم الطاعة

ويستج عن الكورباة التي تسوق الانسان الى تعظيم نفسه ، والبغضة التي تجذبه الى احتقار صديقه ، ويعالج الخصام بتحطيم هاتين الرذيلتين الذميتين .

(١) جاء في كتاب احياء علوم الدين للغزالي ج ٣ ص ٩٧ ما يلي (كان أبو بكر الصديق

يضع حصاة في فيه يمنع بها نفسه من الكلام) .

(٢) المزمور (٣٧ : ٣٨) .

المشاجرة:

وهي النزاع بالكلام الذي يثار ، اما من الظالم ، واما من المظلوم . اما الاول : فيعالج بالآية القائلة : « لا تظلموا أحداً » (١) واما الثاني فبالآية القائلة « من اراد ان يخاصمك ويأخذ ثوبك فأترك له الرداء ايضاً » (٢)

الشتيم

وله باعثن ، الاول : ان يقصد الانسان اغاظة المشتوم ، والثاني كون الشتم عادة رديئة تأصلت بالأنسان وتمكنت منه بمعاشرة الجهلة ، ويعالج الشتم بالآية القائلة : « ومن قال لأخيه رفا يكون مستوجب المجمع ، ومن قال يا أحق يكون مستوجب نار جهنم » (٣) اما من توجه اليه الشتيمة فعليه ان يعتبر سببها خطيئته (الذاتية) لا من شتمه ، وبهذا ينجو من إغاضه اياه ،

الحرم واللعنة :

الحرم هو ابعاد شيء عن الله .

واللعنة هي ان يطلب الانسان الشر لغيره . والعارفون الذين يسمعون كلام الرسول بولس القائل « باركوا ولا تلعنوا » (٤) لا يحرمون ويلعنون .

(١) انجيل لوقا (٣ : ١٤)

(٢) انجيل متى (٥ : ٤)

(٣) فيه (٥ : ٢٢)

(٤) رسالة الرسول بولس الى أهل رومية (١٢ : ١٤)

الغناء :

يتركب الغناء من عبارات مثيرة للميول الفاسدة ، ويضم بين طياته هوى الزنا ، لذلك فهو مشجوب ، ومن كان مصاباً به فعلاجه ابدال الغناء بالترتيل .

الهزل :

هو الكلام الباعث على الضحك وهو يبيت القلب ويقلل الكرامة . ومصدره الدالة التي يصفها العارفون بريح محرقة تهب على الزروع ابان الحصاد فتصوتها . ويعالج الهزل بقول الانجيل المقدس « ويل لكم ايها الضاحكون الآن لأنكم ستحزنون وتبكون » (١) .

السخرية :

وهي فضح مساوي. الناس استخفافاً وبنوع من الاحتقار والازدراء ، وتعالج السخرية بقول الانجيل « لا تحتفروا احد هؤلاء الصغار » (٢) التمييز والاستهزاء ،

وهما اظهار عيوب الناس كرهاً وحقداً . ويعالجان بقول المرتل « طوبى للرجل الذي . . . في مجلس المستهزئين لم يجلس » (٣) .

(١) انجيل لوقا (٦ : ٢٥)

(٢) انجيل متى (١٨ : ١٠)

(٣) المزمور (١ : ١)

الكذب

وهو الاقرار بما لا وجود له ، كأنه موجود ، وبالموجود كأن لا وجود له . ويعالج الكذب بقول المرتل (مخاطباً ربه) : « تُهالك المتكلمين بالكذب » (١) واعلم انه اذا قصد به فائدة روحية لا يعتبر اثمأ . مثلما لم يحسب كذب (المرأة المسماة) راحب اثمأ ، عندما اخفت الجاسوسين وانكرت وجودهما عندها (٢) . وقد قال أحد الآباء بهذا الخصوص ، « يجوز التصرف بهذا النوع من الكذب في حالة الخوف » .

الغيبية :

وهي ذكر زلات انسان امام شخص آخر بعدم حضور المعتاب ، وسبب الغيبة توهم مقترفها انه لا يأثم بأظهار زلات غيره . وقد يغتاب انسان آخر بصيغة التعجب او الشفقة (٤) كمن يقول (مثلاً) : عجيبي بذكاه فلان كيف سقط في الفسق ! وأسفي على فلان كيف انه أخذ في السرقة . ويعالج هذا المرض بأن يحصي الانسان فضائل المعتاب فلا يذمه ان كان فطنأ .

الوشاية :

وهي ذكر سوء امام الانسان الذي قيل عنه أو اعترف ضده ، والغاية من الوشاية اما اساءة للقاتل واما احراز رضا الذي قيل عنه (السوء) ، واذا

(١) المزمور (٦ : ٥)

(٢) سفر يشوع (٢ : ٤ - ٦)

(٣) وهو أسلوب بشكل المدح يراد به النعم كما يقول البلاغيون

كان الأخير عادلاً لا يصدق الواشي بل يحتقره ، ويوبخه ، ولا يحقق معه مدقاً ، وهكذا يفادر هذا خازياً .

الشفاه الملقّة:

الشقي صاحب الشفاه الملقّة ، يمدح كلاً من الخصمين امامه ، ويذمه ورااه . ويمالج هذا الداء بقول المزمور « يقطع الرب جميع الشفاه الملقّة » (١)

المدح:

يقترف المدح أربعة أنواع من الأثم : الكذب ، عندما يقول عن المر حلو . والمحابة : عندما يتطرف بالمدح . والضلالة : عندما يقول ما لا يعرفه بتدقيق . وسوء النية : عندما يبهج الأثيم (بمدحه)

اما المدوح فينال شراً ، الافتخار والكبرياء ، وكلاهما يعالجان بالصمت .

السناجة بالكلام:

وهي كمن يقول لولا فلان لأكلني الذئب ، والجدير به أن يقول ، لولا أن الرب قيض لي فلاناً لأكلني الذئب .

الفحص التافه:

وهو أن يستقصي الانسان عن شيء لا تجدي معرفته فائدة أو خيراً . ولا يتج الجهل به خسارة ، كمن يستقصي عن اسم أب ملكيصادق .

(١) المزمور (١٢ : ٣)

ومثلما تتنقى الفضة ، من رُذالتها . في الكور ، هكذا يتطهر المبتدي من
هذه العثرات داخل دار المبتدئين .

latinseminary.org